ليوبولد سنجور وأهمية الدراسات اليونانية واللاتينية

د. محمدحمدى إبراهيم
أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية
كلية الآداب –جامعة القاهرة

ليوبولد سنجور ليس مجرد زعيم أفريقى محب لوطنه ولقارته، ولكنه عالم وباحث راسخ القدم ومفكر لامع من مفكرى القرن العشرين، وشاعر حالم رقيق ذو نزعة إنسانية تعلو على العرق واللون واللغة. وإن نسيت فلن أنسى محاضرته الرائعة التى ألقاها فى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة يوم تكريمه بمنحه درجة الدكتوراه الفخرية من الجامعة، فى حضور الرئيس الراحل جمال عبدالناصر فى أوائل فترة الستينيات من القرن الماضى. وهى محاضرة تدل على عمق فكره وغزارة علمه وفيض ثقافته ونظرته الثاقبة التى تتخطى حدود الزمن وتهتك أستار الغيب. ولقد لفتت زميلتى الفاضلة الدكتورة جوزين جودت عثمان نظرى إلى اهتمام سنجور بالثقافة اليونانية والحضارة اللاتينية وتحمسه لهما، وأمدتنى سيادتها بزاد وفير من المقالات التى نشرها فى هذا الصدد، فكان لها الفضل فى تدبيج هذه الورقة التى أتشرف بإلقائها فى هذه المناسبة الجليلة، وفاء لذكرى إنسان زرع الأمل فى النفوس، وأوجد الحب، ونبذ الصراع والحرب.

١- مفهوم الجامعة وفكرة العام أو الكلى: Université et Universum

يرى سنجور أن مدلول كلمة universum (= العام، الكلى، الشامل) يوضح خاصية متميزة للحضارة الفرنسية التى نقلت أفكارها عن الحضارتين اليونانية واللاتينية. وهو يوضح لنا فى مقاله أن جامعة مثل جامعة استراسبورج تضم بين ربوعها علماء متخصصين فى شتى أنواع المعرفة، وباحثين يتقنون عدة لغات مختلفة، وبالتالى فإن هذا ينهض دليلاً على توجهها الشامل وعلى انفتاحها على الحضارة العالمية. ثم إنها ـ فى تصوره ـ جامعة تحقق التوافق بين وضوح الغرب وعمق الشرق، وتخلق انسجاماً بين روح الرقة وروح الهندسة، بين الآداب والعلوم وبين الفلسفة والتكنولوجيا، وهذا بحذافيره هو مدلول كلمة universum التى تعنى

الكل فى واحد(١).

ومن رأى سنجور أن النصف الثانى من القرن العشرين قد شهد ما يمكن تسميته باسم الحضارة العالمية، بشمولها وبارتكازها على جماع سكان الكوكب الذى نحيا فوقه، وكذا بوصفها نشاطاً يجمع بين سكان القارات على بكرة أبيهم، ويشمل جميع الأجناس وكل الأمم. فالكيان الجامع universitas يعنى بصفه مبدئية الكيان الذى يجمع كل ما يمت بصله للقارة وللعرق وللأمة، وهذا أمر يعنى شمولية الواقع ووحدة الوجود(٢). ويعتقد سنجور أن تجاهل الجامعة الأوروبية لقيم الأفريقانية السوداء يساوى عزوف الجامعة الأفريقية عن تعليم الحضارة اليونانية سواء بسواء. ومن هنا فهو يعتقد أن الفن الإفريقى، أو فن السود، يرتكز على قيم كامنة داخله؛ ويبدى سنجور دهشته من أن الفنان الأفريقى قد استطاع بأدوات بسيطة ووسائل بدائية أن يذلل كافة العقبات التى واجهته، ولم يسمح لمشكلة أيا كانت أن تحول بينه وبين الخيال الخلاق أو عن الاعتدال، ذلك أن قوة فنه كامنة فى انسجامه وفى تجانسه وفى قدرته على التعبير المركز. ويخبرنا سنجور أنه حينما كان يقوم بسفرة إلى نيجيريا كان يحس أنه يقوم برحلة حج إلى المصادر والمنابع الأولى وكأنها أماكن مقدسة، ولذا فهو يطلق على نيجيريا اسم بلاد اليونان السوداء(٣). وبناء على ذلك فهو قد سبق مارتن برنال الذى أطلق على مدينة أثينا اسم أثينا السوداء فى كتابه المشهور بهذا العنوان، الذى رد فيه أصول الحضارة الإغريقية إلى منابع أفروآسيوية.

٢- دفاع عن الآداب الكلاسية: Défense des Lettres Classiques

ويعتبر المقال الذى يحمل هذا العنوان أهم مقال فى رؤية سنجور للدراسات اليونانية واللاتينية ولقيمتها، التى لا تبلى مع الزمن ولا يتطرق إليها الفتور مهما طال الأمد. وهو يبدأ هذا المقال الثرى باعتراض على التشويهات الوحشية التى أدخلت على نظام التعليم الثانوى فى فرنسا، فى إطار هجمة شرسة استهدفت الدراسات اليونانية واللاتينية، ورأت تقليص حجمها تحت زعم مؤداه أن الحداثة modernité تتطلب ذلك؛ وبالتالى ظلت الحداثة تزحف لتحل محل الجزء الذى كانت تحتله الدراسات اليونانية واللاتينية عاماً بعد عام. و يرفض سنجور مسايرة هذا الذى يحدث فى فرنسا ويعلن عن معارضته له، بل ويعتبره نوعاً من التساهل الذى لا مبرر له. ثم يتصدى بوصفه أديباً وكاتباً وأستاذاً لإخضاع هذه القضية للفحص الدائب، ولتفنيد الدعاوى والمزاعم التى سيقت من أجل تبرير هذا التشويه الوحشى. ثم إنه يستشهد فى هذا المقام بالرئيس الفرنسى جورج بومبيدو، الذى يمثل أعلى

سلطة فى فرنسا، ويهيب به بوصفه دارساً للأدب أن يدافع مع المدافعين عن الدراسات اليونانية واللاتينية وينتصر لها(٤).

وهو يفند فى مقاله هذا مزاعم من ينادون بالاهتمام بالتعليم الفنى technique فى مواجهة التعليم العام السائد آنذاك والمعتمد على الثقافة العامة. وفى تصوره أن مجموع المعارف التى يتيسر للطلاب تحصيلها فى نطاق التعليم العام تتيح لهم أن يحظوا بفرصة تطوير حسهم النقدى، وتقوية مقدرتهم على الذوق العالى وعلى إصدار الأحكام الصائبة. ذلك أن مجموعة هذه المعارف التى يحصلونها، سواء أكانت نظرية أم تطبيقية، هى الكفيله بتمكينهم - هم وسواهم - من الحصول على المعرفة الدقيقة، ومن الوقوف على ما يدور فى بيئتهم. فالمعرفة فى نظر سنجور هى الثقافة، لأنها معرفة تشكل حسنا النقدى وتدفعنا إلى أداء الفعل، كما أنها تنمى ذوقنا وتصقل أحكامنا. وبتعبير آخر، فإن الإنسان المثقف على هذه الصورة هو وحده الذى يستطيع أن يمارس نشاطه النوعى، وهو الوحيد الذى بوسعه أن يتفاعل مع بيئته ويؤثر فيها(٥).

ويوضح لنا سنجور أنه غير مقتنع بالدوافع التى ساقها المناهضون لتقليص حجم الجرعة المتعلقة بالدراسات اليونانية واللاتينية، فهم يزعمون أنهم يريدون إصلاح نظام التعليم بأسره من المدرسة الابتدائية حتى الجامعة وتحويله إلى تعليم فنى لمسايرة التحديث، ويرومون التركيز على التطبيق العملى وعلى التدريب المهنى، وبالتالى يزورّون عن التعليم العام ببرامجه ومفاهيمه. ثم يقول سنجور إن حكومة السنغال التى تضع في حسبانها الشخصية الأفريقانية السوداء قد أعطت الأولوية لبرنامجين أساسين، هما، الرياضيات واللغات، وركزت على ما يبنى عليهما من تطبيق عملى. واللغات في تصوره تعنى اللغة الفرنسية الرسمية، اللغات الست القومية، ثم اللغات الحديثة ذات الانتشار الواسع، وكذا اللغات الثلاث القديمة: اليونانية واللاتينية والعربية. كما أنه يعتقد أن الواجب على الحكومة هو أن تعلم أبناءها وتطور من قدراتهم ومن حسهم النقدي وتعلى أذواقهم وحكمهم الصائب على الأمور، ويترتب على ذلك أن تقوم بتثقيفهم، وأن تغرس فيهم ملكتى التجريد abstractim والتعبير expression. وبناء على هذا فإن الرياضيات تظفر بالمرتبة الأولى في سلم الأولويات، بحكم أنها العلم الذي يدرس الأعداد، أي يتعامل مع الكم والترتيب في آن واحد(٦).

ودراسة الرياضيات – في رأى سنجور – تتيح للدارس القدرة على التجريد

وعلى تكوين الأفكار العامة، نظرا لأن الرياضيات هي أساس جميع العلوم النظرية والتطبيقية، وهى العلم بمعناه الواسع. فإذا كان هذا هو شأن الرياضيات، فإن التعبير اللفظى هو الذي يمنح الإنسان إيضاح الفكر والوجود، ففى البدء كانت الكلمة In Principio erat verbum. ويوضح لنا سنجور أن الأساطير الأفريقية تخبرنا أن الكلمة هى الوسيط الذى خلق به الله البشر وجميع الكائنات، ومن هنا فإن التعبير يمتزج بالثقافة كما يرتبط بالخلق والوجود، ونعنى به الوجود الدياليكتى المتفاعل بين الإنسان والطبيعة. أما دراسة اللغات في إطار علم اللغة العام فهى تتيح للطلاب التدريب على الفهم المقنن المصاحب لأكثر أنواع التعبير صلاحية وتأثيرا. وهذه الخبرة في التعبير المناسب هى التى تضيف إلي روح الهندسة l' esperit de géométrie التى تمنحها الرياضيات للإنسان روح الرقة l' espesit de finesse التى تخلق الثقافة الإنسانية وتوجد التعبير الإنسانى المتكامل(٧).

٣- ميزات اللغات الكلاسية : Les Vertus des Langues Classiques

ويفند سنجور مزاعم المناهضين لدراسة اللغات الكلاسية بحجة إصلاح نظام التعليم الفرنسي، ويرد عليهم بقوله إن الأفضل هو الإبقاء على كل من اليونانية واللاتينية، وأن يتعلم الطلاب معهما أو مع إحداهما لغة ثانية هى اللغة الأوروبية الحية ذات الانتشار الواسع. فالتحديث أو الحداثة التى توجب في زعمهم الاهتمام بالتطبيق العملي ذي المردود الاقتصادي، لا تعنى – في تصوره – شن حرب شعواء لا هوادة فيها على اللغات الكلاسية، لأننا بهذه الحرب وأمثالها لن نصبح حداثيين! وفى رأي سنجور أن براهين هؤلاء المناهضين للثقافة الكلاسية ليس بوسعها أن تصمد أمام الدحض والتفنيد أو حتى التحليل، وذلك لأنهم يضعون الثقافة في مقابل المنفعة المادية والمردود الاقتصادى.

ويعتقد سنجور أن معرفة اللغة اليونانية، ومعرفة اللغة اللاتينية على وجه الخصوص، تعنى قبل كل شئ القدرة على معرفة اللغات المشتقة من أصل لاتينى (الإيطالية، البرتغالية، الإسبانية، لغة رومانيا) ومنها اللغة الفرنسية بطبيعة الحال. وهو يقول لنا في هذا الصدد: "خذ على سبيل المثال الأدباء الفرنسيين العشرة المشهورين على أيامنا هذه، ابتداء من فرنسوا مورياك حتى جان بول سارتر، ومن سان جون بيرس John Perse حتى جان كلود رينار، ولسوف تكتشف لدهشتك أن معظمهم تقريباً – إن لم يكن كلهم – قد درسوا اللغة اللاتينية انطلاقاً مما هو موجود في سيرة حياتهم".

أما فيما يتعلق باللغة الانجليزية – والكلام لا يزال على لسان سنجور – سواء أكان ما دون بها آدابا أم علوماً، فإن نصف مفرداتها تقريبا من أصل لاتيني (وهى مقولة شائعة: Half the English Dictionary is Latin)، وبالتالي فإن معرفة اللغة اللاتينية أمر لا محيص عنه، على الأقل لكى نتفادى الرجوع إلي القاموس بصفة متكررة ... أما الميزة الثانية لتعلم اللغات الكلاسية، فهى ميزة ذات طابع عملى، حيث إن هذه اللغات تسهم في خلق روح الفاعلية وتمنح القدرة على التأثير (ومن رأينا ـ مصداقاً لقول سنجور ـ أنها تنظم الفكر أيضاً وتكسب الدارس الدقة والمنطقية) (٨).

ويضرب سنجور على ذلك مثلاً بالأنموذج الأمريكي، فيقول: "إن الرئيس الأمريكي جون كيندي قد أوصانى – أثناء رحلتى التى قمت بها إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦١ – بزيارة جامعة هارفارد – التى تخرج فيها – لأنها تعتبر هى وجامعة ييل من أشهر الجامعات الأمريكية. وفى أثناء زيارتى هذه دفعنى الفضول إلي أن أسأل العميد الذي كان يصاحبنى خلال الزيارة عما إذا كانت الدراسات اليونانية واللاتينية في صالح الطلاب وتعود عليهم بالنفع أم لا. ولقد رد على العميد بقوله: "إن اهتمامنا يتزايد منذ الحرب العالمية الثانية بصورة ملحوظة باللغات الكلاسية، وباللغة اليونانية على وجه الخصوص". وهنا ازداد فضولى عن ذي قبل، فسألته: ولأى سبب؟ فابتسم العميد وهو يقول: لأن السبب في ذلك – كما يمكنك أن تلاحظ – هو أن اللغة اليونانية تثري المشاعر وتغذي الروح، وتعد الطلاب لكى يصبحوا رجال أعمال مرموقين وناجحين." فانظر كيف غدت اللغة اليونانية سلاحاً حاسماً وعنصراً جوهرياً في التحدى الأمريكي، وانظر كيف اعتبرت اللغة اليونانية أداة للإدارة فى النصف الثانى من القرن العشرين(٩).

فإذا كان الأنموذج الأمريكي باعثاً على الدهشة للوهلة الأولى، فمابالنا بما كان موجودا في فرنسا، معقل الفرانكوفونية على أيامى، حينما اكتشفت أثناء إقامتى ودراستى هناك أن أفضل الطلاب في الرياضيات هم الطلاب الذين كانوا يدرسون اليونانية واللاتينية". ويضرب سنجور مثلاً يبرهن على ذلك بطالب يدعى عبد العزيز وانى، كان من العباقرة اللامعين ذوى الصيت الذائع، وكان في الوقت نفسه متخصصاً في الدراسات اليونانية واللاتينية؛ فلقد ثبت بالدليل القاطع أن هاتين اللغتين تؤهلان الطلاب تأهيلاً جيداً لدراسة الرياضيات والعلوم ولإتقان دراسة إدارة الأعمال. وفى رأي سنجور أن السبب في ذلك هو أن كل لغة عبارة عن بناء،

وبمعنى آخر عبارة عن مجموع متجانس ذى أجزاء راسخة ثابتة، كل جزء منها مؤلف بدوره من عناصر مختلفة، أي من عناصر ثابتة constantes وأخرى متغيرة variables. وبناء على هذا، فإن الجملة تتألف من مجموعة من الكلمات، أي من وحدات مرتبة syntagmes، تشكل كل وحدة منها وحدة تعبير unité d' expression. وحتى لو اعتبرنا أن هذه الوحدة عبارة عن صيغة ذات تنوع، فإنها تعبر دائما عن وظيفة ثابتة، ومثال ذلك: الاسم، الصفة، الفعل، المكمل، وهو ما يجده الإنسان في جميع اللغات على اختلاف أنواعها(١٠).

وعلى هذا الأساس، يمكن اعتبار كل لغة – وعلى وجه التحديد نظام النحو في كل لغة – علماً قائماً بذاته، نظراً لأن كل علم له موضوع يكشف عنه في مجاله، أي له هيكل وبناء، وبعبارة أخرى مجموع مؤلف من العناصر المتعلقة به. وطالما أن كل لغة لها بناء ومعرفة وثيقة الصلة بالعلم، فإن دراسة اللغات تعد ذات طبيعة علمية مؤهلة لدراسة الرياضيات. ولكن اللغات ليست متساوية كلها في القدرة على خلق هذا الإعداد أو هذا التأهيل، لأن أكثر اللغات قدرة على هذا هى اللغات التى تتميز بتراكيبها اللغوية المتنوعة وتقسيماتها المتفردة، وهى اللغات التى تحظى بحالات إعراب متعددة للأسماء، مثل اللاتينية واليونانية واللغة العربية القديمة، وهى خاصية بوسعها أن تمنح الدارسين قدرة غير محدودة على التجريد والتصور(١١).

ويري سنجور أن اللغة اليونانية، وكذا اللغة اللاتينية على وجه الخصوص، تتميزان – على عكس اللغات الجرمانية أو السلافية – بأن اشتقاق الألفاظ فيهما يجرى بطريقة منطقية وواضحة، الأمر الذى يسمح بإيجاد مفردات كثيرة جداً من الأسماء المجردة، وكذا مترادفات عديدة بطريقة غاية في السهولة، وهى خاصية لا تزال باقية في اللغة الفرنسية بحكم انحدارها من أصل لاتينى. وفضلاً عن هذه الخاصية فإن اللغة اللاتينية واللغات المماثلة لها تتميز بسهولة التركيب عن طريق إضافة سوابق préfixes لجذع الكلمة أو لواحق suffixes، من أجل إعطاء معان جديدة بغير حدود. ويضرب سنجور مثلاً على ذلك بالجذع اللاتيني (-necess) الذي يفيد معنى اللازم أو الضرورى ويبين لنا أنه جذع اشتقت منه ألفاظ كثيرة منها necessitas = الضرورة، ومنها necessitudo = الإلزام {ومنها necesse = حتمى أو لا محيص عنه، ومنها necessus = الحتم}. كما يضرب مثلاً آخر بالجذع (- négri) في اللغة الفرنسية، الذي يفيد معنى السواد، ويوضح لنا أنه جذع اشتقت منه كلمة négritude = الزنوجة، الزنجية، وكذا كلمة négrité = السواد، وكلها كلمات

ذات معنى مجرد[١٢].

٤- السنغال وموقفها من اللغة اللاتينية ومن النزعة الكلاسية الإنسانية: **Le Sénégal, Le Latin et les Humanités Classiques**

ويطوف بنا سنجور في هذا المقال عبر ما خلفته الحربان العالميتان من آثار مدمرة بقيت توابعها ماثلة فى الحضارة الأوروبية الحديثة، وفى منطقة البحر المتوسط التى يطلق عليها سنجور اسم المنطقة اليوروأفريقية. وفى رأيه أن التاريخ يعلم البشر في الحقيقة أن الإمبراطوريات العظمى كافة قد بادت بسبب ما اعتراها من فساد وبوار، ولكن ما يظل متألقاً بالنور الساطع الذي لا يخبو بريقه هو روح الحضارة الإنسانية المشرقة بالتفاؤل والأمل. وفي هذا الصدد يخبرنا سنجور أنه – بوصفه رجل دولة وأستاذاً يضطلع بتدريس اللغات الكلاسية – سوف ينبرى لتقديم طائفة من أفكار المواطنين السنغال عن قيمة هذه اللغات الكلاسية وإسهامها في تكوين الشخصية وتشكيلها، إبان هذه الحقبة الزمنية التى اتفق الناس على تسميتها باسم الحقبة التكنولوجية[١٣].

ويؤكد سنجور من بعد ذلك على حقيقة مؤداها أن المسئولين في السنغال لم ينحوا أبداً باللائمة على اللغة اللاتينية، أو يجعلوها مسئولة عن عدم التوافق الذي زعم المناهضون لها أنه قائم ضد التحديث؛ والسبب فى ذلك هو أن الناس في السنغال مقتنعون بأهمية اللاتينية بعد أن درسوها جميعاً ودرسوا معها اللغة اليونانية. ويعلن سنجور أن بوسع كل شخص من الأفارقة أن يردد باللاتينية العبارة التى كانت تخاطب بها الملكة ديدو الأفريقية البطل أينياس في ملحمة الإنيادة للشاعر فرجيليوس، وهى[١٤] :

Huic uni forsan potui succumbere culpae:

"ربما أمكننى أن أنزلق لارتكاب هذه الخطيئة من أجل شخص واحد لا سواه".

ويضيف سنجور إلي هذا أن هؤلاء الذين قدر لهم الاستقرار في بلاد السنغال قد غدوا اشتراكيين ديمقراطيين، لأنهم آمنوا أن الاشتراكية معادلة للأفريقانية السوداء بالنسبة لهم من دون العالمين. والأفريقي في نظر سنجور لا يمكن أن يتصف بالتهور أو المغالاة، بفضل احتفائه بقيم اللغة اللاتينية وإعلائه من قدر الدراسات الإنسانية بوجه عام. فهناك الكثير من الأفارقة المشهورين الذين عاشوا إبان العصور القديمة أو العصور الكلاسية، وحققوا إنجازات رائعة في مجال بناء الحضارة الأوروبية

المنتشرة في حوض البحر المتوسط. ويكفى فى هذا الصدد أن يذكر المرء أسماءً مثل فيلون أو أفلوطين أو أوريجينيس، وهم من المصريين الذين دونوا مؤلفاتهم باللغة اليونانية، أو أن يذكر أسماءً مثل تيروتولّيانوس أو كيبريانوس أو القديس أوغسطين، وهم من البرابرة الذين دونوا أعمالهم باللغة اللاتينية. فهل يتعين على المرء من بعد ذلك أن يذكر نفراً آخر من صناع الحضارة الأوروبية؟ وأعنى بهم قدامى الإغريق الذين كانوا منافسين لا يستهان بهم للمصريين، والذين دونوا مؤلفاتهم منذ عصر الشاعر الملحمى هوميروس حتى عصر الجغرافي الأشهر استرابون. فمن نافلة القول أن يذكر الإنسان هنا أن هؤلاء الإغريق القدامى قد أغدقوا الثناء على الإثيوبيين، أي على ذوى البشرة السوداء أمثالنا! ونحن اليوم ـ بفضل الأبحاث التى تمت فى الجامعات الأوروبية والجامعات السوداء سواءً بسواء ـ نعرف أن السود الأفارقة كانوا أكثر عدداً من السود الذين يعيشون على أيامنا هذه في كل من أثينا وروما، ونعرف كذلك أنهم كانوا يعيشون في هاتين المدينتين بوصفهم مواطنين لا أرقاء[١٥].

ويختتم سنجور هذا المقال الذي ينضح بالصدق والصراحة بالفقرة التالية التى أنقلها كما هى: "إننا نشعر اليوم بسبب هذه الصلات الحميمة وأمثالها، وهى صلات تتزايد يوماً بعد يوم، بالغبطة والسرور على الدوام، لأننا حظينا مع أوروبا منذ أقدم العصور بحضارة مشتركة هى الحضارة اليوروأفريقية؛ وهو أمر يبعث في نفوسنا – نحن الأفارقة – السعادة على الدوام. ذلك أن الخصائص الأصيلة التى تميز هويتنا وتميز شعوبنا الأفريقية قد ظلت ثابتة راسخة طوال الزمن بغير أن نفقد شخصيتنا، بل إننا على العكس من ذلك قد أعلينا من قدرها ورفعناها إلي أعلى عليين[١٦]".

٥- اللاتينية في السنغال : Le Latin au Sénégal

يتحدث سنجور في هذا المقال عن نظام التعليم في السنغال وعن قوانينه وميزانيته بطريقة عامة، ثم يخبرنا بعد هذا أن التعليم العام في السنغال يقوم على دعامتين أو ركيزتين، هما الرياضيات واللغات، وأن اللغات التى يجرى تعليمها في السنغال، هى: اللغة الفرنسية الرسمية، اللغات القومية الست وفقا للامتداد الجغرافى لكل لغة منها، اللغات الحديثة ذات الانتشار الواسع، مثل: الإنجليزية، الألمانية، الإيطالية، الإسبانية، البرتغالية، الروسية؛ وكذا اللغات الثلاث القديمة: اليونانية واللاتينية والعربية. وهو يري أن سبب الاهتمام بتدريس اللغة العربية هو التأثير الواضح الذي مارسه الإسلام في بلاد السنغال والذى لا يزال ممتداً على أيامه[١٧].

ثم يخبرنا سنجور من بعد ذلك أن دراسة اللغة اللاتينية تبدأ ببداية التعليم المتوسط وتستمر حتى نهاية المرحلة الثانوية، و بالتالى فهى تستغرق ما يقرب من سبع سنوات، وأن تدريسها إجباري جنباً إلي جنب مع اللغة الأوروبية الثانية، أو مع اللغة اليونانية التي تستمر الدراسة فيها لمدة ثلاث سنوات. ثم يسوق من بعد ذلك الأسباب ذاتها التي سبق أن تحدث عنها في مقال سابق عرضناه أعلاه، حيث إنه يعتبرها أسباباً مقنعة لدراسة اللغة اللاتينية؛ ويري أن اللاتينية ذات فضل سابغ في تطوير الأفهام، وتربية الذوق العالي، وتنمية الحس النقدي، واكتساب ملكة الحكم الصائب علي الأمور، فضلاً عن تأثيرها الفعال في صياغة الثقافة وتربية ملكات التجريد والتعبير. ويستشعر المرء هنا أن هناك تكراراً ملحوظاً للمبررات وللبراهين وللأفكار التي سبق لسنجور أن ساقها من قبل عند حديثه في المقال الذي يحمل عنوان: دفاع عن الأدب الكلاسي(١٨).

ثم يطرح سنجور من بعد هذا التفصيل سؤالاً ذكياً: ولكن ما هو السبب الذي حدا بنا إلي اختيار اللاتينية مع أنها تعد الآن لغة ميتة، مثلها في ذلك مثل اللغة اليونانية القديمة التي لا تزال مقيمة حتى الآن بين ظهرانينا ؟. وهو يجيب علي هذا السؤال بقوله: إن السبب في ذلك يرجع دون شك إلي قوة الصور التي تحظي بها، وإلي موسيقي مفرداتها، وإلي تناغم أشعارها. ويري سنجور أنه لا توجد لغة أخري من اللغات الحية الحديثة بوسعها أن تضارع اللاتينية أو تنافس اليونانية، وأنه لا يوجد شاعر – مهما بلغت مكانته – يمكنه أن ينافس فرجيليوس اللاتيني أو بنداروس اليوناني. ويعتقد سنجور أن القيمة الخلاقة التي تحظي بها اللغة اللاتينية تكمن في العقلانية وفي القدرة علي إضفاء التأثير المستمد من العبقرية الرومانية، ويتصور أن متطلبات الحضارة الحديثة التي ازدهرت علي أيامنا هذه، وكذا المتطلبات الصناعية والتكنولوجية، تعود في الأساس إلي هاتين الخاصيتين أو يرجع الفضل فيها إلي هذين المعيارين. وإن لنا أن ننظر بإمعان إلي تاريخ روما وإنجازاتها، وإلي العلوم التي وصلت إلينا من لدن الإغريق مروراً بمدرسة الإسكندرية المصرية، لنري كيف استطاعت روما أن تبسط سيطرتها علي العالم المأهول الواقع حول البحر المتوسط، وكيف مدت حدود إمبراطوريتها لتصل إلي بريطانيا العظمي في الغرب، وإلي إيران في الشرق، وإلي الصحراء الكبري في الجنوب. ولكن روما ما كان لها أن تظفر أبداً بهذه الهيمنة إلا لأنها كانت ترتكز علي ركائز من العقلانية ومن القدرة علي التأثير الفعال، وهو الأمر الذي يمكن لتلاميذنا اكتشافه أثناء قراءتهم للشعر اللاتيني، فيكتسبون من بعده القدرة علي التطبيق، ثم يتزودون شيئاً فشيئاً بهذه الملكة في

أرواحهم، فتتغير بالتدريج عاداتهم وأفكارهم وأفعالهم(١٩).

وإذا كانت غاية التعليم هي تكوين الفرد وتشكيل شخصيته، فبوسعي أن أقول إنه لا يوجد أفضل من دراسة اللغات الكلاسية لتطوير الإنسان بصفة متكاملة، وجعله يحظى بالفعالية والإنتاجية؛ ولا شئ يضاهي في الأفضلية دراسته للحضارات القديمة التي قامت علي أسس من هذه اللغات. وبوجه عام، فإن الثقافة الكلاسية متهمة علي أيامنا هذه بتهمة هي منها براء، فهم يزعمون أنها تعوق مسيرة الشباب وتحد من انطلاقهم وتقدمهم، نظراً لأن هؤلاء الشبان يصادفون في مجتمعاتهم التي تتميز بتوافر التكنولوجيا وتعقيداتها مشكلات عالم لا بد من تغيير مبادئه وتقاليده التي نراها تتغير بالفعل بصورة سريعة(٢٠).

وهم يرون أن هذه الثقافة الكلاسية تحول بين الشباب - والبالغين أيضاً - وبين التعامل مع معطيات الواقع الراهن، وتصرفهم عن إعطاء إجابات مقنعة يجابهون بها المشاكل التي تقلق العالم وتبث في جنباته الاضطراب. والحق أن بوسعنا أن نذهب في تفنيدنا لهذه الآراء إلي العكس تماماً، فدراسة الماضي توجد وظيفة للواقع الذي نحيا فيه، وهي تمنح الفرصة لإيجاد فهم أفضل لمشكلات الحاضر الموجودة أمامنا. والثقافة الكلاسية التي تشكل البني الفكرية وتقدم المسائل الجوهرية، هي القادرة علي مساعدة الأجيال الجديدة علي أن تحظي بفهم أفضل لهياكل المجتمع الواقعية، وهي القادرة أيضاً علي دفعهم إلي المشاركة الإيجابية في حلها والتغلب عليها. ويكفي أن نسوق هنا قولاً مأثوراً في اللاتينية من شأنه أن يدعم وجهة نظر سنجور هذه، وهو: "استطاع سُلاً .. أفلا أستطيع أنا؟" Sulla potuit .. ego non potero?، وهو قول مأثور يستشهد به في التدليل علي أن الخبرة المستمدة من البشر السابقين علينا تدفع المرء للنجاح وتحفزه علي الإنجاز. والثقافة الكلاسية - كما يقول سنجور- تقدم لنا نظاماً ديناميا من الأفكار الخلاقة، ولا شك أن الحاضر يضم الماضي بين طياته كما يحمل في ثناياه بذور المستقبل وإرهاصاته، وهو أمر يؤكده كل من برجسون Bergson، وبلونديل Blondel، وبوترو Boutroux، كما يركز عليه روبير شيلنج Robert Schilling، الأستاذ بجامعة استراسبورج، في محاضرته التي تحمل عنوان: البحث عن النزعة الإنسانية: دروس من الماضي ومتطلبات للحاضر:

A le Recherche d'un Humanisme: Leçons du passé, Exigences du present.

ثم يمضي سنجور فيقول إن ما هز وجداني علي الدوام هو علمي بأن ماركس ولينين، اللذين أسسا الاشتراكية العلمية، لم يدرسا فقط الدراسات الكلاسية، بل إنهما

كانا يحترمان أيضاً قيم الحضارتين اليونانية واللاتينية[٢١].

ورغم أن الظروف قد تغيرت بتغير الأزمان والعصور، إلا أن ما تعلمناه عن قدامى اليونان والرومان ظل على قيمته السامية بالنسبة لنا، فالدروس التي زودونا بها ظلت دائماً متسقة مع الواقع ولا تجافيه. وإذا كانت ألف عام قد انصرمت علي التطور التكنولوجي، وصنعت الآن ذلك التقدم المادي المدهش واللافت للنظر، وهو تقدم يدفعنا دوماً إلي الانبهار كلما اكتشفنا قدراً من أسرار هذا الكون الذي نحيا فيه، إلا أن روح الشعوب وأعماقها لم تتغير إلا لماماً. فنحن نصادف في عصرنا هذا المواقف نفسها والمشكلات ذاتها، التي كانت تشكل موضع الاهتمام في فكر البشر وأرواحهم منذ قديم الأزمان[٢٢].

ثم يمضي سنجور ليتحدث من بعد ذلك عن منتدي للخطيب الروماني الأشهر شيشرون، كان يقام تحت اسم: Colloquium Tullianum، ويعقد تحت رعاية معهد الدراسات الشيشرونية الإيطالي وبفضل سابغ من رئيسه جوليو أندريوتي، فيعدد الدروس التي استفادها عالمنا المعاصر من فكر شيشرون، الخطيب المفوه ورجل السياسة المحنك البارع، الذي علمنا ضرورة تأسيس قوانينا علي فهم عادل للحياة، ونبهنا إلي أهمية البحث الدائب عن الحقيقة، وإلي وجوب التصدى للنفاق ورفض الرياء، والذي أغدق الثناء علي حتمية إرساء أسس السلام: Paci semper consulendum. ويردف سنجور بقوله[٢٣]: "مثل شيشرون كمثل كتاب أوسفر جليل، لا تزال صفحاته تحمل الكثير مما يجب علينا أن نتعلمه. وما دمنا قد تحدثنا عن شيشرون، فإن هناك كثيراً من الكتاب الآخرين ذوي الصيت الذائع والشهرة البالغة إبان العصور القديمة، الذين بوسعنا أن نتحدث عنهم بمثل ما تحدثنا عنه لكي يرافقوننا في رحلة شيخوختنا، ونحن مثقلون بلحظات درامية مؤثرة كجيل يضنيه العذاب ويكتنفه القلق من كل صوب وحدب. هذا هو تاريخ الأمس الذي ينحون عليه الآن باللائمة، ومع ذلك فإن حماقة الحرب – وليس التاريخ – هي التي أطلقت غرائزنا الوحشية من عقالها، فأشاعت الدمار وأتت علي الأخضر واليابس. ولقد تقت في أشد لحظات حياتي قتامة وصعوبة إلي الضوء الذي شد من أزري وقوي عزيمتي، فوجدت أنه الضوء الذي حمل لي رسالة معبرة من العصور الغابرة، وتبينت أنها رسالة عن الجمال وعن الحقيقة. وفي الحق إن ثقافتي الكلاسية ذاتها هي التي تكفلت بتلطيف شعورى بالاستعباد، وهو الشعور الذي لازمني في حياتي أثناء اللحظات التراجيدية الأليمة إبان الحرب. فلقد كنت مسجوناً في زنزانة رقمها ٢٣٠

بسجن فرون استالاج Front – Stalag، ولم أجد ملاذاً لي آنذاك سوي محاورات أفلاطون المدونة باللغة اليونانية القديمة والمزودة بحواشي تفسيرية ضافية. وذات يوم كنت جالساً في سجني ومنهمكاً في القراءة كعادتي، فمر بي ضابط من ضباط سجن فرون استالاج، فنهضت من فوري من مقعدي لأزجى إليه التحية. وهنا اقترب مني وتناول الكتاب الذي كنت أطالعه وفتحه، ثم سألني عما إذا كنت أقرأ كتاباً باللغة العربية. فأجبته بقولي: لا ! بل هو مدون باللغة اليونانية. ولم يصدقني في البداية، لذا طلب مني أن أقوم بترجمة صفحة من صفحات الكتاب حتي يطمئن قلبه. وفي اليوم التالي، وجدته يطلق عليَّ لقب السيد الأستاذ Herr Professor، كما يخلع عليّ لقب رئيس الكارتي Kartei، أي الموظفين العاملين بإدارة المعسكر. وإني أهيب بكم أن تلاحظوا أننا كنا آنذاك تحت سيطرة النازيين!"(٢٤).

ثم يستشهد سنجور- من بعد سرده لهذه الطرفة ذات الدلالة – ببيتين لاتينيين، هما:

Et iam summa procul villarum culmina fumant

Maioresque cadunt altis de montibus Umbrae .

"كان الدخان يتصاعد من أسقف المنازل الريفية من على مبعدة،

وكانت الظلال الوارفة تمتد تحت الجبال الشاهقة".

ومن بعد ذلك يستشهد سنجور بالعبارة التى قالها المسيح عليه السلام لتلميذه بطرس ذات يوم، وهى:

Tu es Petrus et super hanc petram aedificabo:

"أنت بطرس، ولسوف أشيد على هذه الصخرة كنيستى".

وذلك لكى يوضح مدى سهولة التعبير ودقته باللغة اللاتينية التى لا تشكل أي عائق، بل تنساب في طواعية وسهولة تدعوان للإعجاب(٢٥).

ويرى سنجور ان المفكرين الذين ينادون بالعدمية les nihilismes وكذا الفلسفات العبثية التى تذهب إلي القول بلا معقولية الوجود، إنما تعبر عن أعراض مرضية ظهرت في العالم كنوع من الاحتجاج الصادق على التدهور الذي أصاب القيم والمعتقدات، غير أنها بالقطع لا تقدم برهاناً أو سنداً بوسعه أن يساعدنا على الاستمرار في الحياة في عالم مجرد من المغزى. فلقد فقدت القيم معناها بأسره،

وترتب على ذلك وضع دفعنا إلي إلقاء المسئولية على كواهلنا بوصفنا رجال سياسة ورجالات ثقافة(٢٦).

ثم يقول سنجور بعد ذلك: إن روحى تتوق إلي تأسيس اشتراكية أفريقية لا تتوقف ولاتنى في مسيرتها الديمقراطية، وذلك لكل تظل إنسانية. ومرامي هو القول بصراحة إنه يجب علينا في إطار الخطة العالمية أن نعمل جاهدين، من أجل تشكيل حضارة عالمية زاخرة بالقيم التى تتكامل فيما بينها، وتضم جميع قارات الدنيا وكل الأجناس والشعوب.

ثم يختتم سنجور مقاله ببيتين من الشعر اللاتيني على النحو التالى :

His ego nec metas rerum nec tempora pono

Imperium sine fine dedi …………..

"فأنا لم أُقِم بهذه الإنجازات حدوداًً ولا أزماناً للموجودات،

ولكننى فقط أسست أمبراطورية مترامية الأطراف بلا حد يحدها"(٢٧).

وبعد ...... فهذا هو مبلغ اقترابى من حديقة أفكار سنجور الغناء ذات الظلال الوارفة والثمار الناضجة .. وإذا كان فكره وحكمته قد أرضيا عقلى، ومنحانى السلوى والعزاء للصبر على الهجمة الشرسة التى تبغى هدم معبد الدراسات الكلاسية على رؤوسنا، لنظل بعيدين فى مصر عن منابع الثقافة التى تصقل العقل وتهذب الوجدان، والتى كانت حافزا وباعثا على حركة التنوير والنهضة في أوروبا منذ قرون عديدة خلت. فلا شك أن سنجور كان يمثل بشخصه بوتقة انصهرت داخلها كل الأفكار السامية القادمة من الشرق ومن الغرب، ومن أفريقيا التي كان يعشقها فوق الخيال. ومما لا مراء فيه أن الإنسان الحق هو الذي لا يتعصب لفكره دون سواه، وهو الذى لا يعادي أفكار الآخرين بلا معني، بل هو الذي يتنقل كالنحلة بين الأزهار لكي يرتشف من كل زهرة رحيقها، ويصوغ من كل هذا الرحيق بناءً فكريا متماسكاً يرمى إلي إعلاء قدر الإنسان، في زمن بات فيه الناس يهانون ويحقرون من ذوي القربي ومن الأجانب سواء بسواء.

لقد وجدت فى شخص سنجور الأفريقى نصيراً للثقافة الكلاسية، لا يقنع بالتوافه والقشور، بل يغوص إلي أعمق أعماق المحيط ليظفر بالدرر التي لا يحظي بها سوي المغامر الجسور. فياليتنا نتعلم من ذوي العقول النيرة أمثاله ما يضئ لنا ظلام الطريق الذي نسير فيه بعيون مغمضة، دون أن ندرك أن الهاوية فى خاتمة الطريق

تفغر فاها لتبتلعنا دون هوادة ولا رحمة. ودعوني فى ختام كلمتى أغدق الثناء علي سنجور بقول مأثور، كان شيشرون ـ الذى يحبه سنجور كما سلف القول ـ يردده ليلفت به نظر الرومان إلي الاهتمام بالإخلاص والتكريس قبل أي أمر آخر، وهو:

Orate deos ut viros mihi similes habeatis:

"ابتهلوا إلي الأرباب أن تحظوا برجال يماثلونني (إخلاصاً)".

ونحن بدورنا نبتهل إلي الله أن يهبنا رجالاً مخلصين، ذوي نزعة إنسانية وحب فياض للبشر وللثقافة الحقة مثل ليوبولد سيدار سنجور.

الهوامش

(1) Léopold Sédar Senghor, Liberté iii: Négritude et Civilization de l' Universel, édition du Seuil, Paris (1976), p. 40.
(2) op. cit., p. 41.
(3) ibid. p. 42.
(4) ibid. p. 243.
(5) ibid., p. 244.
(6) ibid., p. 244.
(7) ibid., p. 245.
(8) ibid., pp. 245- 246 .
(9) ibid., p. 246.
(10) ibid., p. 246.
(11) ibid., pp. 246-247.
(12) ibid., p. 247.
(13) ibid., p. 412.
(14) ibid., pp. 412- 413.
(15) ibid., p. 413.
(16) ibid., p. 413.
(17) ibid., pp. 419-421.
(18) ibid., p. 421.

(19) ibid., p. 422.
(20) ibid., p. 422.
(21) ibid., p. 423.
(22) ibid., p. 423.
(23) ibid., pp. 423- 424.
(24) ibid., p. 424.
(25) ibid., p. 425.
(26) ibid., p. 425.
(27) ibid., p. 426.